مجلة الإحياء، المجلد: 21، العدد: 28، جانفي 2021، ص - ص: 813 – 828
الترقيم الدولي: 1112-4350 الترقيم الدولي الإلكتروني: 2588-2406

الأسطورة المعاصرة كبنية سيميائية لدى رولان بارت

Contemporary Myth as a Semiotic Structure according to Roland Barthes

طالبة دكتوراه نصيرة عيسى مبرك* **أ.د/ عبد المجيد عمراني**
كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية - جامعة باتنة1
مخبر الانتماء: حوار الحضارات والعولمة
amrani_abd@yahoo.fr aissamebraknacira82@gmail.com

تاريخ الإرسال: 2020/12/26 **تاريخ القبول: 2021/01/16**

الملخص:
يتناول هذا البحث موضوع الأسطورة بالمفهوم البارتي، والتي تعد بمثابة تجاوز للأسطورة في المعنى والاستعمال التقليدي، الذي يربطها بعالم الخرافة واللاعقلانية، فإذا كانت المجتمعات القديمة، قد صنعت أساطيرها بناء على اعتقادات متباينة، فإن المجتمعات المعاصرة، تصنع أساطيرها بامتياز، وتستهلكها عن وعي أو دون ذلك، فأساطير الواقع اليومي، حسب بارت، هي رسائل مغلفة ومقولبة ضمن أشكال، وما يجعلها مؤسطرة، هو الطريقة التي تشتغل بها، أو الكيفية التي تصل بها إلينا، لتمرر عبرها مختلف المعاني والمقاصد والدلالات.
ووفقا للمعنى الذي أضفاه بارت على الأسطورة، فإن كل شيء أو موضوع، بإمكانه الخروج من دائرته الطبيعية، ليصبح موضوعا أسطوريا، وفضلا عن هذا، فالميثولوجيا المعاصرة بالمنظور البارتي، لا تقف عند حدود كونها رسائل حاملة ومحملة بمختلف الدلالات، والمعاني المتباينة، بل تتجاوز ذلك، لتشكل بنية سيميائية متكاملة، تنبني على بنية سميائية موجودة قبلها، تشكل لها الأرضية التي تنطلق منها، وهي اللغة، فالعلامة اللغوية بدالها ومدلولها، هي ما يشكل النسق الدال لهذه الأساطير.
الكلمات المفتاحية: الأسطورة المعاصرة؛ الدال الأسطوري؛ المدلول الأسطوري؛ اللغة؛ البنية السيميائية.

Abstract:

The present research attempts to investigate issue of the myth, in the sense of Barthes, which is a transgression of myth in meaning and traditional use, which links it to the world of superstition and irrationality. If ancient societies have created their myths based on differing beliefs, contemporary societies make their myths distinctly and consume them consciously or otherwise. The daily according to Barthes is messages encased and molded into forms, and what makes them a myth is the way it works or how it reaches us, to pass through the different meanings and purposes and signification.

According to the meaning that Barthes added to the myth, everything or subject can emerge from its natural circle, becoming a mythical subject. Moreover, contemporary mythology in the barthist Perspective is not limited to carrying messages loaded with different connotations and divergent meanings, this is an integrated semiotic structure based on a semiotic pattern that precedes it. It is the Language from which it originates. It is the linguistic sign, its signifier and signified, is what forms the significant pattern of these myths.
Key words: The Contemporary myth; The mythical Signifier; The mythical signified; The language Semiotic structure.

* المؤلف المراسل.

مقدّمة:

إذا كان الواقع في شموليته، يمثل مجالا رحبا للتقصي والبحث، فإنّ هذا الأخير تغذيه قنوات المشهد الاجتماعي والثقافي، والفكري والإعلامي العام، بكلّ ما تحمله الخطابات المستشرية فيها، من هالة و تلوينات وطقوسيّة، لذلك شكّل الواقع بكل تجلياته ،إشكالاً فلسفياً لدى العديد من المفكرين، كما هو الشأن بالنسبة إلى المفكر الفرنسي رولان بارت، الذي لم يتوقف عند حدود التعامل مع الواقع، من حيث كونه إحالة على الوجود العيني المباشر فحسب، بل باعتباره فضاءً علاماتياً، تسبح في مداه أنساق دلالية، أطلق عليها بارت تسمية "الأساطير المعاصرة "، حيث تصنع عمقها الدَّلالي علامات على تنوعها واختلافها، والمنفتحة على مستويات قرائية واسقرائية وتأولية واسعة، تكشف عن وضوح وبداهة دلالاتها ومعناها من جهة، وعن غموضها الآسر، وكثافتها الدلالية والمفهومية، المتحجبة بالضبابية والالتباس من جهة أخرى.

فالوجود الفعلي لأساطير الواقع اليومي، في تعدّدها وتلويناتها وغناها، والمدى الذي تغطيه من الواقع، ومختلف الظواهر التي تشتغل بوصفها كذلك، لا يقل أهميَّة وشأنا من الحضور القوي للأسطورة، كمفهوم نظري وإجرائي، في كتابات بارت، على مستويات متفاوتة، فالأسطورة تتموقع ضمن زاوية مهمَّة، من حيّز الفكر البارتي، على وجه العموم، ورؤيته السّيميائيَّة على وجه الدقة والتحديد.

ذلك أنَّ الأسطورة، بحسب مفهوم بارت، ذات الارتباط العميق بالتطوّرات السوسيوثقافية ،لا تمنح نفسها كموضوع للوعي فقط، بل توفر للذَّات في الوقت نفسه، إمكانية إعادة تفكيك رموزها، واستبطان دواخلها، كما هو الحال بالنسبة لمظاهر ثقافية أولاها بارت أهميَّة بالغة: كالإشهار، الصورة، المودا...، حيث عمد بارت إلى التسلّح بمقاربة، تتعالى على المقاربة الوصفيَّة، التي عمّمتها الدَّراسات البنوية، وتوجه في المقابل نحو تبني المقاربة السيميولوجية، في التعامل مع تحليل مختلف الأنساق الدلالية.

وسأحاول الكشف عن "روح "الأسطورة من وجهة نظر المفكر الفرنسي رولان بارت، انطلاقا من أسئلة تشكل في مجملها إشكالية هذا البحث، وهي كالتالي : مامفهوم الأسطورة المعاصرة باعتبارها بنية سيميائية بالمنظور البارتي؟ ثم ماهي الوحدات الأساسية لهذه البنية؟ كيف استفاد بارت من سميولوجيا النسق اللغوي، عند اشتغاله بالأنساق الثقافية ؟ أو بالأحرى ما علاقة الأسطورة المعاصرة باللغة ؟

ولموضوع الأسطورة المعاصرة أهميته التي يكتسيها في الفلسفة ،إذ أنه يمس بكيفية أو بأخرى العديد من المسائل الفكرية، فهذا الموضوع قد تكتمل به بعض التصورات الفلسفية .

وباعتماد مقاربة تحليلية منهجية أهدف، في هذا البحث، إلى تمكين القارئ، من التعرف على بعض ملامح الأساطير المعاصرة بالمفهوم البارتي، والخروج بالموضوع من حيز الدراسات السيميائية واللغوية والأدبية، إلى حقل الدراسات الفلسفية، وذلك لما يحمله الموضوع من بعد وعمق فلسفيين .

وللإجابة عن إشكالية البحث المطروحة سابقا، سأتطرق إلى ثلاث قضايا رئيسة هي كالآتي: 1- تعريف الأسطورة عند بارت، 2- البنية الدلالية للأسطورة، 3- الأسطورة واللغة، 4- قراءة رموز الأسطورة.

المبحث الأول :الأسطورة المعاصرة بالمفهوم البارتي

أولا: تعريف الأسطورة المعاصرة عند بارت

في الجزء الثاني من كتاب أساطير"Mythologies" لرولان بارت "Barthes Roland" [(1)] وقبل أن يقدم هذا الأخير تعريفا للأسطورة، يستفتح كلامه بطرحه للتساؤل التالي: ما هي الأسطورة

المعاصرة ؟ أو بعبارة أخرى ما معنى أسطورة اليوم؟

ويتبع سؤاله مباشرة بقوله: "سأقدم وعلى الفور إجابة سهلة جدا، تتفق مع الأصل الاشتقاقي للكلمة: الأسطورة هي كلام، ولكن بطبيعة الحال، الكلام المقصود هنا ليس أي ضرب من الكلام، بل يجب أن تتحقق شروط لغوية خاصة، من أجل تشكيل الأسطورة. وما يمكن أن يطرح بقوة منذ البداية، هو اعتبار الأسطورة نظاما سيميولوجيا، فهي رسالة في حد ذاتها.

والأسطورة بهذا المعنى، لن تكون موضوعا ولا مفهوما، ولا حتَّى مجرد فكرة، بل هي نسق دال، أو بالأحرى هي شكل. وما يجب فعله منذ البداية، يفرض وضع الحدود التاريخية له، وشروط اشتغاله. فالأسطورة لا تعرّف بموضوع الرسالة التي تحملها، بل بالطريقة التي تشتغل بها فهناك حدود شكلية للأسطورة" [2].

بناء على ما سبق ذكره، يتضح أن هناك تقاربا كبيرا بين التصور البارتي وكذا تصور كلود ليفي ستروس" Claude Levi-Strauss" للأسطورة، ويظهر ذلك جليا من خلال قوله أن الأسطورة هي نمط من أنماط الخطاب، وتندرج في سلسلة من أنظمة الخطابات، وتتعلق الأسطورة بنظام اللغة، وتشكل جزءا لا يتجزأ منه، وإذا كانت الأسطورة تنطوي على المعنى، فلا يمكن أن يتعلق هذا المعنى بعناصر معزولة تدخل في تكوينها، بل بطريقة تنسيق هذه العناصر، فالأسطورة بهذا المعنى تنبع من اللغة، وتشدد على المعنى الكامن بدوره في اللغة[3].

وإذا كان بارت يؤكد على الجانب البنيوي أو الشكلي للأسطورة، فهذا ما يصر عليه ليفي ستروس أيضا: وليس ما يسمى بالمعنى هنا، هو ما تعنيه الأسطورة على الإطلاق، بمعنى محتواها أو قصدها الفلسفي أو الوجودي، بل هو بالأحرى طريقة ترتيب المثيمات وعرضها، أي بوجيز العبارة ببنية الأسطورة[4].

وبعد تساؤله عن الأسطورة المعاصرة، يضيف بارت تساؤلا آخر: هل يمكن لكل شيء أن يكون أسطورة؟ مجيبا: نعم، أنا اعتقد هذا، فكل شيء يمكن أن يكون أسطورة. لأنَّ كل أشياء العالم يمكن أن تكون موحية إلى أبعد حد، فكل موضوع من هذا العالم، يمكن أن ينتقل من حالة وجود مغلق إلى حالة شفوية متكلمة منفتحة على المجتمع، لأنَّه لا يوجد أي قانون طبيعي أو غير طبيعي، بإمكانه أن يمنع الأشياء من أن تكون متكلمة [5].

ذلك نظرا لكون الأسطورة تتجلى في صورة دوال، سواء كانت مكتوبة أو مرئية، فإنه يمكن لأي شيء أن يصبح أسطورة، وبذلك لا تخص الأسطورة بدايات تكوين المجتمعات البشرية، وإنما تمارس حضورها بصورة يومية في الحياة الإنسانية.

وفي تقدير "كاسيرر" " Ernest Cassirer " فإن الأشكال الرمزية، بما فيها الأسطورة، هي التي تنتج الواقع وتمثل فهما مغايرا له، وليست انعكاسا له، أي أن الأشكال الرمزية تتميز بطابعها التكويني، وليس التكراري، فهي تؤكد على أن الإنسان يمتلك طاقة رمزية، تعبر عن نشاط إنساني أصيل، وليست انعكاسا أو مرآة للواقع.

ويؤكد كاسيرر في ذات السياق، على أننا لا نستطيع فهم الممارسات المختلفة للإنسان، في أي ثقافة معينة، دون التوسط الذي تقوم به الأشكال الرمزية، فهي بمثابة الأدوات التي يعرف بها الإنسان العالم، فتصبح الأسطورة عندها، كشكل رمزي، وسيلة أساسية من وسائل المعرفة، كما أنها أي الأسطورة تصبح عنصرا أساسيا، لا غنى عنه في تشكيل الثقافة، بوصفها مؤسسة إنسانية خاصة، وبهذا المعنى فإن الثقافة

لن تخضع لمنطق كلي أو شامل، ولكنها تخضع لبنية رمزية، ومهمة أيه فلسفة أو نظرية في الثقافة، هي الكشف عن البنيات الأساسية، للأشكال الرمزية في ثقافة ما [6].

وتأسيسا على هذا، لا يمكن الحديث عن واقع في الدرجة الصفر، أو "واقع خام". فالواقع ليس مجرد حقل وقائع ومجال ماهيات بحتة، بل هو حقل دلالات بامتياز، ذلك لأنَّ ظواهر الواقع ومظاهره محملة دوما بقيم مضافة، وبتمثلات واستيهامات ورموز، معنى هذا أنَّ الواقع الخام هو إنكار للكثافة التأويلية، وهو قول بحضور المعنى ونفي لخبث العلامات.

فالواقع ليس أبدا كما يبدو، فخلف أشيائه تنتصب الدلالات، التي لا تنكشف إلا بالتأويل والتعرية، وتحليل الرّسالة وفك شفرة الخطاب والعلامات، وهذا السلوك المعرفي النقدي، يستند في أصل مقومات اشتغاله، إلى استدراج آليات نقد النقد، وتحليل الخطاب والاستقراء السيميولوجي الذي يحلل الدلالات، التي تولدها العلامات في سيرورتها المنتجة للمعنى [7].

وقول بارت: "إنّ بعض الأشياء تصبح فريسة للخطاب الأسطوري لبعض الوقت، ثم تختفي ويأخذ البعض الآخر من الأشياء مكانها، لبلوغ حالة الأسطورة"[8].

"دليل على أنَّ عالمنا الرّاهن يصنع أساطيره أيضًا، ويبدو أنَّ الإنسان في حاجة دوما لأساطير، تعينه في العيش والتّكيف والتواصل [9].

ولعل هذا الاعتقاد، يجد تبريره فيما قاله فراس السواح في كتابه" الأسطورة والمعنى":" فالإنسان الحديث الذي غالبا ما يفخر بعلمانيته وعقلانيته، هو سليل ذلك الإنسان المتدين القديم صانع الأساطير، فهو إذ يدير ظهره لأساطيره التي فقدت لديه كل مقدرة على الإيحاء، إنما يعمل على استبدالها بأساطير مزيفة وطقوس عابثة، قد ترضي ذلك النزوع الأسطوري لديه، هذا ما يجعل الجماهير، على الدوام، عرضة للوقوع في براثن أساطير حديثة"[10].

أي أنَّ اليومي المنبثق عن العالم، يعجّ بخطابات شتّى، تحمل الأحداث، لكنّها تستهلك بشكل بريئ، لا يرى فيها المتلقي ذلك النسق السّيميائي، بل يعتبر أنَّ الدلالة نسق من الواقع، تحوّل المعنى إلى شكلٍ، وأنَّ الصّيغة الصّفر للدّلالة تتحوّلُ بدورها إلى فعل من الأوامر، فتعاقب الأسطورة للمعنى، هو إرادتها للاستحواذ عليه، فالأسطورة تطال كل شيء وهكذا يصبح اليوميُّ، حاملا لصراع طويل ومديد مع الأسطوريّ، لا ينفصل ولا ينقطع، بل يستمر بأشكال متنوعة[11]. وفي هذا السياق يضيف بارت: "فيمكن تصوّر أساطير قديمة جدًا، لكن لا توجد أساطير أبديَّة، لأنَّ تاريخ البشريّة هو الذي يحوّل الواقع إلى حالة كلامية، فتاريخ الإنسانيّة وحده فقط من يضبط حياة وموت اللّغة الأسطوريَّة، فالأسطورة لا يمكن أن يكون لها إلا أساس تاريخي، لأنَّها كلام اختاره التَّاريخ، فلا يمكن أن تتطور بناء على طبيعة الأشياء"[12].

أي أنَّ التاريخ البشريَّ هو الذي ينقل الواقعيّ إلى حالة المحكيّ بالكلام، فالكلام هو الذي ينظم وحده حياة اللّغة الأسطوريَّة وموتها، ولا يمكن للميثولوجيا، سواء كانت بعيدة أم لا، أن تمتلك أساسا تاريخيا، ذلك أنَّ الأسطورة كلام ينتقيه التَّاريخ، ولا يمكن أن ينبثق من طبيعة الأشياء [13].

وقد وجد بارت في الأسطورة، ضمن أولى محاولاته، مجالاً رحباً للتقصّي عن عوالم الدَّلالة، وذلك في خطوة نحو سيميائيات عامة، تشمل تلك الأنساق التي تمثّل أساطير هذا الزمن، كالسينما والإشهار والتصوير ... إلخ، وهذا ما يترجمه قول بارت: "كلام من هذا النوع هو رسالة، هذه الرسالة لا تقتصر فقط على الكلام الشفهي، فيمكن أن تتكون من الكتابة والتمثيل، كما أنَّها لا تقتصر فقط على الخطاب المكتوب، فهي تشمل أيضًا التصوير الفوتوغرافي، السينما، الروبورتاج، الرياضة، الإشهار، فكل هذه

الأنواع، يمكن أن تكون دعماً للكلام الأسطوريّ. فالأسطورة لا يمكن أن تعرَّف بموضوعها ولا بمادتها، لأنَّ أيَّ مادة يمكن أن تهب المعنى بطريقة اعتباطية"[14].

فأنواع الخطاب المرئي والمكتوب، التي ذكرها بارت، تنطوي على حصتها من اللاّعقلانيّة، وتتحوّل إلى نوع من الميتولوجيا التي يحيا بها النَّاس، لأنَّها تصبح جزءا من واقعهم. وخاصَّة حين تجد فسحةً ومتسعاً للتجذّر، بفعل غياب الحسّ النقديّ، وتعذر القدرة على تعرية الخطاب من بلاغته المزيّفة، ومنطقه الهش الملتبس بلا عقلانية فحواه.

ومعنى هذا أنَّ الواقع ينتج أساطيره، أي خطاباته وتمثلاته المشبعة بإيديولوجيا تراهن على تكريس القائم، وتبرير السَّائد، ونمذجة السلوكات وسلعنة القيم، كما هو الشأن في الخطاب الإشهاري كأنموذج للأساطير المعاصرة، على أنَّ الخطاب المقصود به هنا، ليس ذلك المتعلق بالأنساق التواصلية الاعتباطية، التي أرستها الممارسة التداولية في بعدها اللغويّ التقريريّ، بل الأنساق الملحقة أو الثانوية، التي تمرر عبر قناة اللُّغة قيماً ضمنيةً أو مباشرةً[15].

فالإشهار من منظور بارت، يعلن في نظره الحضور الكامل للأسطورة، في قلب كل ممارسات الحياة اليومية لاستناده على الصورة. "فالصورة أكثر قطعية من الكتابة فهي تفرض المعنى دفعة واحدة دون تحليلها أو تجزئتها، لكن هذا لا يعدو أن يكون فارقا تأسيسيا، فالصورة تصبح نوعا من الكتابة، حالما تكون حاملة لمغزى ما... فالصورة ستكون نوعا من الخطاب، شأنها في ذلك شأن المقال الصحفي" [16].

فالإشهار كنظام للتواصل، برسائله وإيحاءاته وأساطيره، يضع رهن إشارة المستعمِل له شبكةً من القيم أي العلامات، والتي هي بنفس المقدار، أفكار مبلورة في أشكال، فإشهار لسيارة مثلا، يكون فيه شكل جانبها وطلاؤها وغلاف مقاعدها دوالاً، تدعم ضمنياً مدلولات من طبيعة أخرى، كالرفاهية والوضعيّة الاجتماعية والسلطة والقوة إلخ... فالأسطورة تقدَّم على شكل كلام مخادع، يخفي الرسالة الإيديولوجية. فما يعطينا إيَّاه الإشهار بشكل خاص، ليس هو الحقيقة، إنَّما هو ظلال الحقيقة [17].

فالأسطورة عند بارت، هي كلُّ موضوع خطاب، يتحوَّل عبر مخزونه الإيحائي، الذي يدرج هذه الخطابات، ضمن رهانات الدَّلالة إلى أسطورة، أي إلى شكل من الخطاب، الذي يطمح إلى توليد دلالته وحقيقته الخاصَّتين وترويجهما، على أنَّهما صلب الحقيقية وعين الواقع.

وهذا ما جعله يؤكد على أنَّ الأسطورة، بالمعنى السّيميولوجي، لا تعدو كونها قولا، ولكنَّه ليس قولا كباقي الأقوال، بل هو نسق للتواصل ورسالة مرتبطة بمجتمع معين، وبلحظة تاريخية معينة من تاريخ هذا المجتمع، وغير بعيد عن هذا المعنى، هو ما أكَّد عليه ليفي ستروس، عندما اعتبر هو الآخر أنَّ الأسطورة هي كلام، فضلا عن كونها لغة[18].

ثانيا: البنية الدلاليَّة للأسطورة المعاصرة

إن الأسطورة هي نظام سيميولوجي، وكل نظام من هذا النوع يفرض علاقة بين مصطلحين: دال ومدلول. لكن كما يرى بارت، علينا أن نتعامل مع كل نظام سيميائي، ليس على أساس مصطلحين، بل على أساس ثلاثة مصطلحات.

وما يجب أن نوليه اهتماماً، هو كيفية ارتباط الدَّال بالمدلول، لتشكيل الوحدة الكليَّة أي العلامة، فالأسطورة تنتمي إلى السَّيميولوجيا باعتبارها علما شكليا، والميتولوجيا موضوعها الأفكار في صيغة أشكال [19].

فالدَّال والمدلول والعلامة، هذه المصطلحات الثلاثة هي شكلية خالصة، والتي يمكن أن تعطى لها محتويات ومضامين مختلفة، لما لها من أهميَّة كبرى في دراسة الأسطورة كمخطط سيميولوجي. ويرى بارت أنَّ ثمَّة تناولاً مختلفاً لهذا الشَّكل الصّرف لحدود الدَّال والمدلول والعلامة، تناولاً يختلف باختلاف المرجعيَّات العلميَّة.

وفي السَّياق نفسه، يضيف بارت قائلا: "في الأسطورة نجد المخطط ثلاثي الأبعاد كما وصفته وتحدثت عنه: الدَّال، المدلول والعلامة، فالأسطورة هي منظومة خاصَّة، وتتأسس بناء على نسق سيميولوجي يوجد قبلها، فالأسطورة هي نظام سيميولوجي ثاني، والعلامة التي هي المجموع الكلي، الرابط بين الصُّورة والمفهوم في النّظام السّيميائي الأول، تصبح مجرد دال بسيط في النظام الثاني"[20].

فبارت يعالج الأساطير كما في النظام اللغوي العام، وفق منظور ثلاثي يقوم على الدَّال والمدلول والعلامة الناشئة عن اجتماعهما. وتغدو العلامات الثقافية بدورها بنية نظام أولي تفضي إلى بنية نظام ثانية، وهذه البنية الثانية هي الأسطورة [21].

والخطَّاطة التَّالية تبرز ذلك: (خطاطة رقم1)

لغــة	1-الدَّال	2-المدلول
أسطورة	3-عــلامة I. الدَّال	II. المــدلول
	III. العلامـــــــــة	

Roland Barthes,Mythologies,éd seuil,Paris,1er pub,1957, p200 .

والمثال الثاني الذي ساقه بارت لإيضاح البنية الأسطورية المعاصرة ،هو صورة غلاف مجلة "باري ماتش""Paris Match" الفرنسية، التي تُظهر جنديّاً فرنسيّاً زنجيّاً، يرتدي الزيّ العسكريّ، ويؤدي التحية العسكريَّة للعلم الفرنسي.

في المستوى الأول، تعبر الصُّورة عن دال ينقل مدلولا مباشرا: "هو أنَّ فرنسا امبراطورية عظيمة، وبأنَّ أبناءها وبدون أي تمييز على أساس الألوان، يخدمونها بإخلاص، ولا يوجد أفضل من حماسة هذا الجندي، للرد على الذين ينتقدون الاستعمار المزعوم"[22].

وفي المستوى الثاني، أي الاسطوري، يتحول الدَّال والمدلول إلى دال ثان، يطلق عليه اسم الشكل، والمدلول الناتج في هذا المستوى، يسمّيه المفهوم، ويسمّي العلاقة القائمة بينهما بالدَّلالة، وهي تقوم مقام العلامة في المنظومة اللغوية، وهذا ما يمكن ترجمته وفق الخطّاطة التالية: (خطاطة رقم2)

النظام اللغوي	1 – دال	2- مدلول
النظام الأسطوري	1- شكل 3- معنـى 2- مفهوم	
	4- دلالـــــة	

المصدر: وائل بركات، السميولوجيا بقراءة رولان بارت، مجلة جامعة دمشق، العدد2، 2002م، ص69.

في هذا النظام الأسطوري، يستطيع المرء أن يميِّز بين الدَّلالة الأولى، والدلالة الأسطورية. فإذا كانت الأولى تثبت ولاء جميع أبناء الوطن وإخلاصهم له، ودفاعهم عنه على اختلاف ألوانهم ومعتقداتهم، فإن الثانية تظهر الهيمنة الفرنسية والجانب الاستعماري لهذه الرمزيّة العسكرية الفرنسية [23].

ففي الأسطورة نظامان سيميولوجيان، يتداخل الواحد منهما مع الآخر، فالنسق الأول هو المسمى باللغة - الموضوع، والذي تبني الأسطورة عليه نظامها الخاص، أو الأسطورة ذاتها والمسمى بالميتالغة "Méta-langage" أو اللغة الثانية، سواء تعلق الأمر باللغة نفسها أو بالتصوير، الرسم، الملصقات، الطقوس، وما إلى ذلك، حالما يتم السيطرة عليها من طرف الأسطورة تتحول إلى وظيفة دلالية محضة، فالأسطورة لا ترى فيها سوى مجرد علامة شاملة، أو المصطلح الأخير لنظام سيميولوجي أول ستصبح مصطلحا أوليّاً أو جزئيّاً، في نظام أكبر ينبني على النظام الأول.

ومن وحي فكرة اللغة والميتالغة، تجدر الإشارة في هذا السياق إلى أن "هيدغر" Martin "Heidgger أولى هو الآخر لهذه الثنائية اهتماما، في معرض حديثه عن الفهم والتأويل، ويظهر ذلك من حلال قوله بأن المنعرج يستلزم أن يتحول موضوع الفهم من اللغة إلى الميتالغة، ومن علاقة التواصل الخطية، إلى فضاء عمقي يخرج بالدلالة، من ثنائية الدال والمدلول، إلى البحث في مدلول الدال ومدلول المدلول، وعند ذلك يتولد تاريخ جدلية للتأويل، بحيث يتنزل الميتالغوي ضمن إستراتيجية فكر فلسفي جديد[24].

غير أنَّ الحديث عن الأسطورة لا يكتمل إلا برؤية شاملة لمظاهر الحياة العامَّة، التي سطّرها بارت ليؤكد صحَّة نظريَّته، فهو ينتقي أمثلة من المصارعة والسينما والدَّعاية والطعام، وسباق الدرجات وغيرها من نماذج الحياة اليومية، ولا ضير من الوقوف عند أنموذج يتعلق بالمصارعة، حيث يقتبس بارت من بودلير "Charles Baudelaire" جملة تنطبق على موضوعه يقول فيها: الحقيقة التفخيمية للحركة في ظروف الحياة الكبرى، محاولا بذلك تأكيد مسألة الانحراف في الأسطورة، وللرَّبط بين مشهدية المصارعة والأسطورة، يستند بارت إلى مفهوم الانحراف حيث يعتبر التفخيم أحد أنواع الانحراف عن الحقيقة والواقع [25].

"إن الميزة التي تمتاز بها المصارعة، هي كونها مشهدًا فيه مبالغة، فنحن نلمس في مشاهد المصارعة تفخيما له علاقة بالمسرح القديم، كما أنَّ حفلة المصارعة تقام في الهواء الطَّلق"[26].

فما يجعل المصارعة أسطورة مستمرة، هو أنَّها تجنح للمبالغة وتقيم علاقة تناصَّية بالمسرح القديم، من خلال حلبة المصارعة التي تساوي منصة المسرح، واشتراكهما بحضور الجمهور. هذه الوظيفة التفخيميَّة هي وظيفة المسرح القديم نفسها، الذي تتعاضد فيه القوَّة مع اللّغة والملحقات (الأقنعة، والأحذية المسرحية).

من أجل تقديم تفسير، تتَّضح المبالغة فيه لضرورة معيَّنة، وبذلك تتحوَّل المصارعة إلى مشهدية أسطوريَّة، وبالتالي إلى علامة سيميولوجيَّة، تبدأ ببث انحرافاتها الدَّلالية، وهي بوصفها علامة تتوزع على محورين: دال وهو أجساد المصارعين، ومدلول هو المبالغات الجسدية للمصارعين، يشكل جسد المصارع المفتاح الأول للصراع، فهو بوصفه دالاً يبثّ مدلوله في سياق أسطورة المصارعة، ومن خلال الجسد والحركات يكوَّن المشاهدون (المؤولون) المدلول.

وقراءة مقال بارت (عالم المصارعة) يوضح بصورة جلية توظيفه أمرين: توظيف مفهوم الانحراف والمبالغة في تحويل المصارعة إلى أسطورة، وتوظيف فكرة العلامة السيميولوجية في مشهد

المصارعة، بوصفها أسطورة، ولذلك درس بارت شكلها لا مضمونها أو درسها بوصفها منظومة اتصال[27].

وباشتغاله بدراسة الأنساق الدلالية على اختلاف موادها عامة، وبتحليله للصّورة والإشهار، على وجه التحديد، استطاع بارت أن يعمل على تبيان السلطة المتحكمة في الصّورة لأنَّ لها بعدين متلازمين: البعد التقريري (النظام الأول) والإيحائي (النظام الثاني)، فقراءة الصورة لا تتطلب الوقوف عند جرد دوالها التقريرية، بل تستوجب البحث عن مدلولاتها الإيحائية للوصول إلى النسق الإيديولوجي، الذي يتحكم في هذا النوع من العلامات. واستطاع بارت أن يفضح تلك الثقافة والإيديولوجيا، التي تختبئ وراء ما يقدم لأفراد المجتمع [28].

فالخطاب الإشهاري من منظوره يتميز بالازدواجية، التي يكون فيها التقرير الأول بكليته على المستوى الأول، بمثابة الدَّال بالنسبة للخطاب الثاني الذي يحيل على المدلول: والذي هو جودة البضاعة، والذي يحفز المستهلك على الشراء [29].

بما أن الأسطورة نظام سيميائي، وحداته الأساسية هي الدال و المدلول، فما هي خصائصهما في الحقل الأسطوري؟

1- الدال الأسطوري: إن الدَّال الأسطوري حسب بارت يتمظهر بشكل غامض، فهو يمثل معنى وشكلا في الوقت نفسه، وهو ممتلئ من جهة وفارغ من جهة أخرى، باعتباره معنى، فالدَّال يتطلب قراءة ويمتلك حقيقة حسية، على عكس الدَّال اللغوي الذي هو من طبيعة نفسية خالصة، فهو يمتلك وفرة وغنى. أما المعنى الأسطوري فباعتباره مجموعة من العلامات اللغوية، فإن لهذا المعنى قيمة خاصة، فهو جزء من التاريخ، فالمعنى عندما يكون كاملا فإنه يفرض وجود: معرفة، ماض و ذاكرة، وعندما يصبح المعنى شكلا يترك وراءه تغيراته، يصبح فارغًا أو أكثر فقرًا، فلا تبقى إلا الرسالة.

فالمعنى الأسطوري يحتوي على نظام من القيم التاريخية الجغرافية، والأخلاقية والأدبية ... إلخ، لكن الشكل الأسطوري قد يبعد كل هذا الثراء، فيفقر المعنى ويفرغه وهذا ما يستدعي الدلالة لتقوم بملئه، ويرى بارت أنَّ النقطة الجوهرية في كل هذا أنَّ الشكل لا يلغي المعنى بل يفقره ويبعده، أي يجعله تحت تصرفه. وهنا يُعتقد بأنَّ المعنى سيموت، لكنه موت مع الحفاظ على الحياة، حيث يفقد المعنى قيمته لكنه يحافظ على حياته، حيث أنَّ الشكل الأسطوري يتغذى منه، وبهذا سيكون المعنى بالنسبة للشكل كمخزون مؤقت للتاريخ.

ويرى بارت أنَّه إذا كان المعنى يظهر ويتخفى بنوع من التناوب السّريع، فإن الشكل يجب أن يتجذَّر باستمرار في المعنى ويتغذى طبيعيا منه، فهو يتخفى فيه، فلعبة الاستخفاء بين المعنى والشكل هي التي تعرَّف الأسطورة.

فشكل الأسطورة ليس عبارة عن رمز، فالزنجي الذي يحيي العلم ليس رمزا للإمبراطورية الفرنسية، لكنْ لديه حضور كبير فيها، فهو يظهر كصورة معيشة، بريئة وعفوية، لا جدال فيها لكن في الوقت نفسه فإن هذا الحضور مخضع، مبعد، محول إلى شيء شفاف، ينحسر بعض الشيء ليصبح شريكا للمفهوم، المتمثّل في الإمبريالية الفرنسية والذي يأتي مجهزا[30].

وعليه، فالدَّال الأسطوري له جانبان: المعنى والشكل، فالمعنى هو دائما هنا ليمثل الشكل، والشكل بدوره يعطي للمعنى الامتداد، ولا يوجد أي تناقض ما بين المعنى والشكل. وعلى هذا الأساس فلو كنت على متن سيارة، كما يقول بارت، وأنت تنظر إلى مشهد من خلال النافذة، لا يسعك إلا أنَّ تركز إما على

المشهد أو زجاج النَّافذة، فمرّة يتراءى لك زجاج النافذة ومسافة المنظر الطبيعي، ومرّة وعلى العكس يشد انتباهك شفافية الزجاج وعمق المشهد. لكن نتيجة لهذا التناوب المستمر، فالزجاج هو في آن واحد حاضر ومفرغ، والمنظر في الوقت نفسه غير واقعي وممتلئ، وهو الشيء نفسه بالنسبة للدال الأسطوري: الشكل فيه مفرغ لكنه حاضر، والمعنى فيه غائب رغم أنَّه ممتلئ.

2- المدلول الأسطوري: أما بالنسبة للمدلول وفق وجهة النظر البارتية، فهو التاريخ الذي ينزف، هو المفهوم. إنه بالنسبة إلى الشكل محدد، تاريخي وقصدي في الوقت نفسه، فهو الذي يدفع بالأسطورة إلى الكلام. فالإمبريالية مثلا في أسطورة الزنجي المحيي، هي الدافع المشكّل لهذه الأسطورة.

فالمفهوم يعيد إنشاء سلسلة من الدوافع والمقاصد خلافا للشكل، وهو ليس بأي شكل من الأشكال مجرّدا، فهو ممتلئ بالمواقف، هو تاريخ جديد مزروع في الأسطورة، ففي مثال الزنجي المحيي كشكل، فالمعنى فيه منعزل، مفقر، لكن كمفهوم للإمبريالية الفرنسية، فهو مرتبط بكل العالم وبالتاريخ العام لفرنسا.

ويرى بارت أنَّ المفهوم ذو طابع مفتوح، فهو ليس جوهرا مجردا، فالطابع الأساسي للمفهوم الأسطوري هو كونه خاصّا، وهنا يعطي لنا بارت مثالا بالفرويدية "Freudsime" [31]، فالمدلول الخاص بهذا النظام السيميولوجي هو المصطلح الثاني للنظام، هو المعنى الكامن وراء الفعل الناقص أو الاضطرابات .

كما أنَّ كل مدلول يمكن أن يكون له عدة دوال، وهذا هو الحاصل فعلا بالنسبة للمدلول اللغوي، ومدلول التَّحليل النفسي. وهذا هو الحال بالنسبة للمفهوم الأسطوري، حيث يوجد تحت تصرفه كتلة غير محدودة من الدوال، فيمكن أن نجد ألف صورة تعبر عن الإمبريالية الفرنسية، وهذا يعني بكل وضوح أنَّ المفهوم أكثر فقرا من الدَّال، كما أنَّ تكرار المفهوم من خلال أشكال مختلفة أمر قيم عند الميتولوجي، فهو يسمح له بفك رموز الأسطورة [32].

وتتحدد دلالة الأسطورة، ضمن إطار هذا التضايف التشويهي، بين " المفهوم" و"المعنى"، فإذا كان المدلول في النسق اللساني، لا يستطيع تشويه أي شيء، وذلك نظرا لضعف مقاومة الدَّال المفرغ، والاعتباطي في الوقت نفسه، فإن الدَّال الأسطوري، يتجلى ضمن مظهرين: مظهر معبأ هو المعنى، ومظهر مفرغ هو الشكل، على أن يعمل المفهوم على تشويه الوجه المعبأ (أي المعنى)، عبر تحويله من سياق إلى سياق آخر، من دون فسخ أو إبطال لوجوده، وبين شكل فارغ حاضر، ومعنى غائب معبأ، يتحدد الدَّال الأسطوري.

وتأخذ المصارعة الحرة، بالنسبة لبارت، وضع علامة أسطوريّة، إذ يسعى ضمنها "التصور" إلى تشويه معنى المصارعة الحرة، عبر نقله من سياقه الأصلي (المصارعة الإغريقية) إلى سياق الفرجة والعرض، حيث يأخذ السياق الأول وضع غائب، لكنه في الوقت نفسه معبأ، بالظروف المشهديّة، التي تفرضها المصارعة الحرّة (العراك، الصراخ، القوة، صخب، الجمهور ... إلخ)، بينما يتحدد شكل الدَّال الأسطوري ضمن الغياب والحضور، إذ يحاول المتصارعون نقل صورة ألم المتصارعين الإغريق، عبر ذلك الألم المصطنع الذي يبدونه، وهو ما يعطي لدال الأسطورة شكلا مفرغا، لكنه حضوري، بين هذا وذاك، تبرز العلاقة التماثلية المعلّلة، ويحصل التشويه والتشكيل لدلالة الصراع المفتوح بين الخير والشر.

وعليه فالدَّال والمدلول الأسطوريان هما واضحان تماما، على عكس ما هو حاصل في الأنظمة

السّيميائية الأخرى، فالواحد منهما لا يختفي خلف الآخر، فهما يظهران على حد سواء دفعة واحدة. فليس الواحد منهما هنا والآخر هناك، ذلك أنَّ الأسطورة لا تخفي شيئا، فوظيفتها التشويه والتحريف، وليس صنع التخفّي [33].

وتجدر الإشارة في هذا السياق، إلى أن "بول ريكور" " Paul Ricœur " يعتقد أن عملية تقسيم الأسطورة إلى الوحدات المكونة لها، لا تمثل إلا تفسيرا أوليا، ولا تعتبر بمثابة التأويل الأخير للأسطورة، وهذا يعود لكون الأساطير هي نصوص لغوية ذات مغزى وإحالة، أي أنها تفصح عن طريق بنائها الداخلي، الذي هو مدار التحليل البنيوي، وعن طريقة وجود مؤلفيها في العالم، وهذا الجانب الأخير، هو ما أهمله التحليل البنيوي، كما هو الحال مع بارت وليفي ستروس [34].

المبحث الثاني: الأسطورة المعاصرة و اللُّغة

أولا: علاقة اللغة بالأسطورة المعاصرة

يعتقد بارت أنَّ الأسطورة هي سرقة للغة، بمعنى أنَّها تحول المعنى إلى شكل من الأشكال، فهذا التحويل يعتبر من أبرز سمات الأسطورة، فكل اللغات الأساسية هي فريسة للأسطورة، حيث يكون المعنى دائمًا، مهددًا بالأسر من قبل الشكل.

ويتساءل بارت إن كان هناك أي معنى يمكن أن يقاوم هذا الأسر، الذي يهدده من طرف الشكل؟ معتبرا بأنَّه في الحقيقة لا شيء يمكن أن يكون في مأمن من الأسطورة، فالأسطورة بإمكانها أن تصنع نسقها أو نظامها الثاني، من خلال أي معنى كان، حتَّى وإن لم يكن يوجد أي معنى.

لكن تختلف اللغات في درجة مقاومتها للأسطورة، فاللغة التي هي في أغلب الأحيان الأكثر سرقة من قبل الأسطورة، تتيح مقاومةً ضعيفةً فهي تتضمن في حد ذاتها بعض الأشكال الأسطورية، وفي هذا يعتقد بارت بأنَّه حتَّى المعاني المتخفية، والتي لا تمثل أبدًا الدرجة الصفر، بإمكان الأسطورة أن تستحوذ وتهيمن عليها، وتقدم لها على سبيل المثال الدلالة التهكمية الساخرة للسريالية ."Surréalisme " [35].

فالدرجة الصفر للمعنى، هي فقط التي تستطيع أن تقاوم الأسطورة، فاللغة إذا تنتسب إلى الأسطورة بأي طريقة كانت، ذلك لأنَّها من النّادر جدا أن تفرض معنى كاملا منذ البداية، وغير قابلة للتشويه، وهذا يأتي من طابعها التجريدي، فعلى سبيل المثال كلمة "شجرة" لها مفهوم واسع وغامض، وتبقى هناك دائما هالة افتراضية تحوم حول معناها الحقيقي، حيث تطفو معانٍ أخرى ممكنة، فالمعنى يمكن أن يكون على الدوام مؤولا.

وبناء على هذا، فبارت يعتقد بأنَّ اللغة تفرض على الأسطورة معنًى مفرغًا، يمكن للأسطورة بسهولة أن تتسلّل وتمتد وتتضخم عبره، وهذه العملية تشبه السطو أو الاستعمار والاحتلال، وإذا كان المعنى الذي تمنحه اللغة جد ممتلئ بحيث تستطيع الأسطورة أن تغمره، فإنها في هذه الحالة ستقبله كليا. أما بالنسبة للغة الرياضة فهي لغة لا تقبل التشويه، لأنَّها تأخذ كل الاحتياطات الممكنة ضد التأويل، فلا يمكن لأي دلالة متطفلة أن تسلل إليها[36] .

وهذا هو السّبب على وجه الدقة، كما يرى بارت، الذي يجعل الأسطورة تأخذ اللغة الرياضية جملةً أو على هيئة كتلة واحدة، ويقدم لنا بارت مثالا لمعادلة رياضية هي: ($e^2=mc2$) فهذه المعادلة هي دال رياضي بحت، يحمل معنى غير قابل للتغيير، فما تسرقه الأسطورة هنا هو الصمود والنقاء، ذلك لأنَّ الأسطورة بإمكانها أن تصل إلى أي شيء، وأن تشوه كل شيء، بل حتَّى كل ما يرفض الخضوع لها.

وكلّما كان صمود الموضوع كبيرًا في مقاومته لهيمنة الأسطورة، كلّما كان استسلامه وخضوعه لها

في النهاية أكبر، فالذي يصمد بكل قوة سينهار في النهاية تمامًا، ويعطي لنا بارت صورة زمنية لصراع الأسطورة واللغة الرياضية، متمثلا في قوله بأن اللغة الرياضية هي لغة تامة، وتستمد كمالها ذاته من تقبلها للموت، وعلى العكس من ذلك فالأسطورة لغة لا تريد أن تموت، فهي تنتزع من المعاني ما تغذي به بقاءها على قيد الحياة، ونجاتها الماكر ... فهي تحوّل هذه المعاني إلى جثث متكلمة.

ومن وجهة نظر بارتية، فإنّ هناك لغة أخرى، والتي تحاول أن تقاوم الأسطورة قدر الإمكان، وهي اللغة الشعريّة، فإذا كانت الأسطورة تهدف إلى تكوين دلالة فائقة، وتوسيع النظام الأول، فإنّ الشعر على العكس من ذلك، يحاول أن يجد دلالة تحتية، تمثل حالة السيميولوجيا الأولى للغة، أي أنَّه يحاول تحويل العلامة إلى معنى، فغايته في نهاية المطاف ليست الوصول إلى معاني الكلمات، بل الوصول معاني الأشياء ذاتها.

وهذا هو السّبب الذي يجعل اللغة تضطرب، مما يزيد في تجريدية المفهوم، واعتباطية العلامة، ويمتد هذا إلى حدود العلاقة التي تربط الدَّال بالمدلول، فالبنية هنا، تطفو على المفهوم وتستثمره وتستغله إلى أقصى حد، فالشعر يحتل الوضعية العكسية للأسطورة، فالأسطورة هي نظام سيميائي، يطمح لتجاوز ذلك ليصبح نظاما واقعيا.

أما الشّعر حسب بارت، هو نظام سيميولوجي، يطمح إلى أن يتقلّص كي يصبح مجرد نظام أساسي، لكن هنا مرة أخرى كما هو الحال بالنسبة للغة الرياضية، فالمقاومة التي يبديها الشعر للأسطورة، هي التي تجعله فريسة مثالية لها، فعدم ترتيب العلامات في الشعر، هو وجه من الوجوه الشعرية الأساسية، التي تستولي عليها الأسطورة، و تحولها إلى دال فارغ يستخدم للدلالة على الشعر.

فالشعر بقدر ما يرفض الأسطورة بشدة ويقاومها، فهو في النهاية يستسلم وينقاد لها كليًا، أو بتعبير بارت: "يستسلم لها مقيد اليدين والرجلين". فهذه هي حالة الشّعر الحديث، على عكس الأدب الكلاسيكي، الذي قبل الأسطورة طواعية، حيث شكّل هذا الأدب، نظاما أسطورًيا داله الخطاب نفسه، كشكل أو كتابة، ومدلوله هو مفهوم الأدب، وثمة الدَّلالة، و هي الخطاب الأدبي، وقد أوضح بارت هذا في كتابه: "الكتابة في الدرجة الصفر""Degrès Zéro de l'écriture"، والذي ما هو إلا ميتولوجيا للغة الأدبية.

يظهر إذا أنَّه حسب معتقد بارت، من الصعب جدًا إخضاع أو هزيمة الأسطورة من الداخل، لأنَّ هذه الحركة ذاتها التي تقوم بها من أجل الهروب منها، ستصبح هي الأخرى بدورها فريسة للأسطورة، فالأسطورة بإمكانها دائما وكملاذ أخير أن تدل على المقاومة الممارسة ضدها، وحسب بارت، فإنَّ أفضل سلاح ضد الأسطورة، ربَّما يكون بإعادة تشكيلها، بأسطرتها هي الأخرى، وذلك بإنتاج أسطورة مصطنعة، وهذه الأسطورة المعاد تشكيلها، ستصبح ميثولوجيا حقيقية [37].

ثانيا: قراءة رموز الأسطورة المعاصرة.

يرى بارت أنَّ تلقي الأسطورة يعني بالضرورة القيام بعملية قراءة للدَّال، والذي يصفه بارت بأنَّه، دال مخادع، وعلى اعتبار أنَّ الدَّال الأسطوري هو معنى وشكل في الوقت نفسه، فإن فك رموزه يكشف عن ثلاثة أنواع من القراءة، بحسب الجانب الذي يتم التركيز عليه، إما المعنى، أو الشكل أو كلاهما معا.

1. إذا كانت القراءة ترتكز على الدَّال الفارغ، فهذا سيسمح للمفهوم بملئ شكل الأسطورة، دون غموض أو لبس، وسنجد أنفسنا أمام نظام بسيط، حيث تصبح الدلالة حرفية من جديد، فالزنجي، على سبيل المثال، الذي يؤدي التحية العسكرية، سيصبح في هذه الحالة مثالا للإمبريالية الفرنسية، فهو رمز لذلك، فالتركيز في هذا الإطار ينطبق على منتج الأسطورة، كالصحفي الذي ينطلق من المفهوم ليبحث له

عن شكل.

2. إذا كان التركيز موجها نحو دال ممتلئ، والذي نميز فيه بوضوح المعنى عن الشكل، وبالتالي التشويه الذي يلحقه أحدهما بالآخر، فإننا، في الحالة هذه، نفكك دلالة الأسطورة وسيتم تلقي الدَّال على أنَّه شيء زائف ومخادع، هذا النوع من التركيز هو الخاص بالميتولوجي، وهو يقوم بفك الأسطورة فهو سيدرك أو يتعرف على التوشيه، فالزنجي في هذه الحالة، على سبيل المثال، يصبح ذريعة للإمبريالية.

3. وأخيرًا إذا كان التركيز على الدَّال الأسطوري، على النحو الذي ينفصم فيه كليًا عن المعنى والشكل، سيتم تلقي دلالة غامضة، وفي هذه الحالة، بإمكان أي واحد منا أن يصبح قارئًا للأسطورة، وعندها فالزنجي لن يبقى مجرد رمز أو مثال أو ذريعة، فهو سيشكل، والحالة هذه، الحضور ذاته للإمبريالية الفرنسية.

النوعان الأولان من التلقي والقراءة، كما يرى بارت، هما من طبيعة ثابتة وتحليلية، فهما يحطمان الأسطورة إما عن طريق الكشف عن غاياتها ومقاصدها، أو عن طريق إزالة القناع عنها وتعريتها، فالقراءة الأولى تهكمية ساخرة، أما الثانية فهي مبددة لغموض الأسطورة، أما القراءة الثالثة فهي ديناميكية، تُستهلك فيها الأسطورة، وفق الغايات النهائيّة ذاتها لبنيتها، فالقارئ هنا، يعيش الأسطورة، بوصفها قصة حقيقية وغير واقعية في آن احد.

وبصرف النظر عن هاته الأصناف الثلاثة للقراءة، يتحدث بارت على نوعين آخرين من القراءة، و ذلك من خلال تساؤله عن كيفية تلقي الأسطورة في عالمنا المعاصر: فإذا تلقيناها على نحو بريء، فأي فائدة سنتحصل عليها منها؟ وإذا قرأناها بطريقة تأمليّة، شأننا في ذلك شأن الميتولوجي، فما هي الذريعة التي نقدمها؟ (38).

فقارئ الأسطورة فيما يتعلق دائمًا بتحية الزنجي، إذا لم يكن يرى فيها الإمبريالية الفرنسية، فهذا يعني أنَّه لا يعطي لها وزنا أو قيمة، وإذا كان يرى في هذه التحية تجليًا للإمبرالية، فإن الأسطورة في هذه الحالة، تصبح مجرد قضية سياسية تفصح عن نفسها، بكل صراحة، ويرى بارت، في هذه الحالة، بأنَّه إما أن يكون قصد الأسطورة غامضا جدًا، لكي يكون فعالاً وإما أن يكون واضحًا تمامًا فيصبح معتقدًا.

يعتقد بارت أنَّ قراءة تحية الزنجي كرمز بسيط للإمبريالية، يوجب التخلي عن واقعيّة الصورة، فهي تسيئ إلى نفسها في أعيننا عندما تصبح أداة، وعلى العكس من ذلك فإذا تمت قراءة تحية الزنجي كتبرير للاستعمار، فإنه يتم بالتأكيد وبشكل أكبر تحطيم الأسطورة، على أساس بداهة دافعها، ولكن بالنسبة لقارئ الأسطورة فإن التّحية مختلفة تمامًا، فكل شيء يحدث كما لو أنَّ الصورة تثير طبيعيا المفهوم، أو كما أنَّ الدَّال يشكل أساسا للمدلول، أي أنَّ الأسطورة توجد في لحظة انتقال الامبريالية الفرنسية إلى حالة طبيعية.

والأسطورة حسب بارت تكون مهددة بالتخفي، في حال ما إذا تركت للنوع الأول والثاني من التركيز، وستخرج من هذا المأزق بحل وسط، وهو كونها ستعمد إلى عملية تمويه للمفهوم القصدي، والأسطورة في هذه الحالة لن تجد في اللغة إلا خيانة، لأنَّ اللغة لا يمكنها أن تقوم بطمس المفهوم، إلا إذا أخفته أو أزالت عنه القناع أو قامت بتشكيله، فوضع نظام سيميائي ثاني سيمكّن الأسطورة الخروج من هذا المأزق، وفي هذه الحالة ستقوم الأسطورة بتطبيع المفهوم، إما بدافع كشف النقاب عنه أو إزالته.

ويخلص بارت من كل هذا إلى أنَّ مبدأ الأسطورة، يكمن في تحويلها التاريخ إلى أسطورة، والأسطورة عندها لا تخفي شيئا ولا تبدي شيئا، بل تقوم بعملية تشويه، وأنَّ ما يتيح في الواقع للقارئ بأنَّ

يستهلك الأسطورة ببراءة، هو أنَّ لا يعتبرها نظاما سيميولوجيا، بل نظاما استقرائيا، لا يوجد فيه سوى تكافؤ، حيث لا يرى عندها إلا نوعا من عملية إجرائية، سببية بين الدَّال والمدلول، ذلك أنَّ كل نظام سيميولوجي هو نظام من القيم، فمستهلك الأسطورة يعتبر الدلالة كنظام من الوقائع والحوادث، فالأسطورة تقرأ على أنَّها نظام واقعي في حين أنَّها مجرد نظام سيميولوجي(39).

وإذا كان بارت قد انتهى إلى أن الأسطورة تعمل على تحويل التاريخ، فهي في النهاية يجب أن تقرأ كمجرد نظام سيميائي لا كنظام واقعي، فإن هذا الطرح قد يجد ما يبرره في قول فراس السواح: " من خلال الأسطورة عمل الإنسان على تحويل وموضعة تجربته الانفعالية مع الكون والنفس الداخلية والإنسان، وفي ترميزه الأسطوري لهذه التجربة لا يلجأ إلى التحليل أو التعليل الخطي المنظم، بل إلى إنتاج بنية أدبية تحاول من خلال تمثيلاتها وصورها الحركية، إعادة إنتاج العالم على مستوى الرمز، وذلك في وحدات أدبية رمزية، تعمل على اختزاله وتقديمه مجددا إلى الوعي" (40).

الخاتمة:

لقد خلصت من خلال هذه المقال إلى النتائج والتوصيات التالية:

النتائج :

أوّلاً: إنَّ رولان بارت لم يحصر نظريته السّيميائية، بكلّ ما تتضمّنه من مفاهيم، في الحدود الضيقة لمجال اللغة، رغم ما يمنحه لهذه الأخيرة من أهميَّة بالغة في الحقل الدلالي والسيمويولوجي، على وجه العموم، بل أطلقها في فضاء الإبداع الإنساني والثقافي بمختلف تجلياته، لتستوعب عديد المجلات وتحتويها.

ثانياً: إنَّ بارت قد انطلق من دراسة مجموعة متنوّعة من الوقائع اليوميّة، في الحضارة الغربيّة المعاصرة، كالمصارعة الحرة، الإشهار، المقال الصحفي و كثير غيرها، و قد اعتبر هذه الوقائع أنساقا دلاليّة، تدرس ضمن "ميثولوجيا" معاصرة سيميائيّة، تجسّدها تمظهرات الثقافة الجماهيريّة، وهذه التمظهرات تأخذ حسب بارت طابعاً أسطورياً، لأنَّها عبارة عن أنساق من الدرجة الثانيّة، فالنَّسق الميثولوجي ينبني على نسق سيميائيّ، موجود قبله يشكّل له الأرضية التي يتطلق منها، وهي اللّغة، فالعلامة اللّغوية بدالها ومدلولها، هي ما يشكل النّسق الدّال لهذه التمظهرات أو الأساطير.

ثالثاً: باعتبارها أشكالا، فإن الأساطير تنتمي إلى علم العلامات من جهة، وبما أنها محملة بالدلالات الإيحائية التأويلية أو بالأحرى الإيديولوجية، فهي تنتسب إلى علم التاريخ من جهة أخرى، كما يعتقد بارت.

رابعاً: إنَّ كل المواضيع والأشياء في هذا العالم بإمكانها أن تتحوَّل إلى مواضيع أسطوريَّة، على اعتبار أنَّ الأسطورة هي كل موضوع متكلَّم عنه، يتمظهر عبر شكل حامل لمختلف الدلالات والمعاني الإيحائية والإيديولوجية.

خامساً: إنَّ الأسطورة المعاصرة، لا تخرج في الأخير عن كونها نسقا سيميولوجيا يتأسس بناء على نظام سيميولوجي أول، يوجد قبلها وإذا كان النظام الأول يمثل المستوى التقريري فإن النظام الثاني (أي الأسطوري) يشكل المستوى الإيحائي أو الإيديولوجي. أما بالنسبة لوحدات العلامة الأسطورية، أي دالها ومدلولها، فإن الدَّال الأسطوري هو معنى وشكل في حد ذاته، ممتلئ من جهة، ومفرغ من جهة أخرى، أما المدلول الأسطوري فهو المفهوم الممتلئ بالدلالات والمقاصد.

سادساً: إن من خصائص الأسطورة صناعة التّشويه، فهي تحوّل المعاني التي تحملها مختلف

اللّغات إلى أشكال، و هذا ما يصطلح عليه بارت بـ" السّرقة الأسطوريّة للّغة" فاللغة عادية كانت، رياضية أو شعرية، كلّها مهدّدة بالتّشويه من طرف الأسطورة.

سابعاً: إن كل عملية قراءة أو فك لرموز الأسطورة، تحيل القارئ مباشرة على الدّال الأسطوري الحامل للشكل و المعنى، وتكون الدّلالات المتلقاة والمعاني المقروءة بحسب الجانب الذي يتم التركيز عليه أثناء التلقي.

ثامناً: انحصار الفكر البارتي في إطار الحدود الضيقة للبنيوية، رغم اشتغاله على أنساق دلالية مختلفة، جعل نظريته السيميائية بكل ما تحمله من أبعاد، تتسم بالانغلاق، فلو كان بارت أكثر تحررا من الأطر الصارمة للبنيوية، لبلغ بنظريته إلى أبعد مما هي عليه، ولكانت نظريته أكثر انفتاحا واحتواء للمضامين والآفاق الفكرية.

التوصيات وأهمها: إستثمار المفاهيم والتصورات النظرية، للمفكر الفرنسي رولان بارت، ذات الطبيعة الفلسفية المنهجية، من أجل تطوير البحوث الميدانية، التي تنصب على دراسة الظواهر البشرية .

قائمة المصادر و المراجع:

المراجع باللغة العربية:

1- فراس السواح، الأسطورة والمعنى، دار علاء الدين، دمشق، ط 2، 2001م .

2- بول ريكور، نظرية التأويل، ترجمة سعيد الغانمي، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، ط1، 2003 م.

3- الزواوي بغورة، الفلسفة واللغة، دار الطليعة للطباعة والنشر، بيروت، ط1، 2005 م.

4- الزواوي بغورة، المنهج البنيوي، دار الهدى، عين مليلة، ط1، 2001 م.

5- دليل محمد بوزيان، اللغة والمعنى، الدار العربية للعلوم ناشرون، بيروت، ط1، 2010م.

المجلات:

6- وائل بركات، السميولوجيا بقراءة رولان بارت، مجلة جامعة دمشق، العدد2، المجلد18، 2002م.

7- سعيد بنكراد، السيميائيات وموضوعها، مجلة علامات، المغرب، العدد 16، 2002م.

مواقع الانترنيت:

8- سعيد أراق، ميثولوجيا الواقع، الحوار المتمدن، العدد 1758، 2006/12/08.
http://www.ahewar.org/debat/show.art.asp?aid=82719

9- سعد محمد رجيم، "المجتمع الإستهلاكي: الأسطورة وصناعة الزائف" ،الحوار المتمدن ،العدد 1406 ،2006/12/21 .
http://www.ahewar.org/debat/show.art.asp?aid=52836

10- عزالدين غازي ،"الأسطورة وأسطرة اليومي "،الحوار المتمدن ،العدد 1716، 2006/10/27.
http://www.ahewar.org/debat/show.art.asp?aid=79251

11- جميل صليبا، المعجم الفلسفي، دار الكتاب البناني، بيروت، ج2، د ط ، 1980.

12- أندري لالاند، موسوعة لالاند الفلسفية، ترجمة خليل أحمد خليل، دار الكتاب البناني، بيروت، ط2، 2002م.

13- روني إيلي ألفا، موسوعة إعلام الفلسفة، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1992، ج2.

المراجع باللغة الأجنبية:

14- Roland Barthes,Mythologies ,éd seuil , Paris, 1er pub,1957.

15- Gagnon Carolle, Nouvelle sociétés, nouveaux mythes. Université Montréal ,canada , n°02, 1994.

الهوامش:

(1)- وني إيلي ألفا ، موسوعة إعلام الفلسفة ،دار الكتب العلمية ، بيروت ،ط1، 1992.ج2.

- رولان بارت Roland Barthes: أديب وناقد فرنسي ولد في 12 نوفمبر 1915 بشاربورغ بفرنسا و توفي في 26 مارس 1980 بباريس كانت له العديد من الكتابات السيميولوجية، وقد كان أحد مؤسسي المغامرة السيميولوجية و البنيوية الفرنسية. درّس الآداب الكلاسيكية بجامعة باريس حيث ساهم في تأسيس جماعة المسرح القديم بالسوربون، عاش حياة فكرية خصبة، ساهم في إثرائها التقاؤه بجورج فورنيي وقراءاته لماركس وميشوليه وسارتر وقد شغل منصب وزير للشؤون الخارجية لفرنسا من آثاره: أسطوريات، إمبراطورية العلامة، نظام الزي، نقد وحقيقة، أنظر: روني إيلي ألفا، موسوعة إعلام الفلسفة، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1992، ج2، ص420.

(2)- Roland Barthes, Mythologies , éd seuil , Paris, 1er pub,1957, p 193.

(3)- الزواوي بغورة ،المنهج البنيوي ، ط 1،دار الهدى ،عين مليلة ،2001 م، ص197-198

(4)- بول ريكور، نظرية التأويل، ترجمة سعيد الغانمي، ط1، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، 2003 م، ص 133.

(5)- Roland Barthes , Ibid, p 194.

(6)- الزواوي بغورة،الفلسفة واللغة، ط1، دار الطليعة للطباعة والنشر، بيروت، 2005، ص78- 79.

(7)- سعيد أراق، ميثولوجيا الواقع، الحوار المتمدن، العدد 1758، 2006/12/08، تاريخ الدخول: 2020/09/25. متاح على الموقع الإلكتروني: http://www.ahewar.org/debat/show.art.asp?aid=82719.

(8)- Roland Barthes, Ibid, p 194.

(9)- نقلا عن موقع الحوار المتمدن: سعد محمد رجيم، "المجتمع الاستهلاكي: الأسطورة وصناعة الزائف"، الحوار المتمدن، العدد21،1406/12/2005، تاريخ الدخول: 2020/10/09. متاح على الموقع الإلكتروني :
http://www.ahewar.org/debat/show.art.asp?aid=52836

(10)- فراس السواح، الأسطورة والمعنى، دار علاء الدين، دمشق، ط 2، 2001م، ص32.

(11)- عز الدين غازي، "الأسطوري وأسطرة اليومي"، الحوار المتمدن، العدد 1716، 2006/10/27، تاريخ الدخول: 2020/10/15. متاح على الموقع الإلكتروني:
http://www.ahewar.org/debat/show.art.asp?aid=79251

(12) - Roland Barthes , Ibid, p 194.

(13)- عزالدين غازي، "الأسطوري وأسطرة اليومي"، الحوار المتمدن، العدد1716، 2006/10/27، تاريخ الدخول: 2020/10/15. متاح على الموقع الإلكتروني: http://www.ahewar.org/debat/show.art.asp?aid=79251

(14) - Roland Barthes, Ibid, p 194.

(15)- سعيد أراق، ميثولوجيا الواقع، الحوار المتمدن، العدد 1758، 2006/12/08، تاريخ الدخول: 2020/09/25. متاح على الموقع الإلكتروني: http://www.ahewar.org/debat/show.art.asp?aid=82719.

(16)- Roland Barthes , Ibid, p 194.

(17)- سعيد بنكراد، السيميائيات وموضوعها ،مجلة علامات، المغرب، العدد 16، 2002، ص4.

(18)- Gagnon Carolle, Nouvelle sociétés, nouveaux mythes, Université Montréal, Canada, n ° 02 , 1994, p 472.

(19) - Roland Barthes, Ibid, p 195-197.

(20) - Roland Barthes, Ibid, p 199.

(21)- وائل بركات، السميولوجيا بقراءة رولان بارت، مجلة جامعة دمشق، العدد2، المجلد18، 2002م، ص68.

(22) - Roland Barthes , Ibid, p 199.

(23)- وائل بركات، المرجع السابق، ص69.

(24)- دليل محمد بوزيان، اللغة والمعنى، الدار العربية للعلوم ناشرون، بيروت، ط1، 2010م، ص218.

(25)- وائل بركات، المرجع السابق، ص69.

(26) - Roland Barthes, Ibid, p 200.

(27)- وائل بركات، المرجع السابق، ص70.

(28)- سعيد بنكراد، المرجع السابق، ص8.

(29)- سعيد أراق، ميثولوجيا الواقع،الحوار المتمدن، العدد 1758 ،2006/12/08 ،تاريخ الدخول :2020/09/25. متاح على الموقع الإلكتروني: http://www.ahewar.org/debat/show.art.asp?aid=82719

(30) - Roland Barthes, Ibid, p 202.

(31)- الفرويدية Freudisme: نسبة إلى فرويد، و هي مرتبطة بمصطلح التحليل النفسي، و هو اصطلاح حديث أطلقه فرويد على إحدى طرق البحث والعلاج، في علم النفس المرضي. و قد انتشر هذا الاصطلاح في علم النفس الحديث، حتى أصبح يطلق على جميع التقنيات، المستعملة في دراسة الأفعال النفسية، شعورية كانت أو لا شعورية. أنظر جميل صليبا، المعجم الفلسفي، دار الكتاب البناني، بيروت، د ط، 1980، ج2، ص257.

(32) - Roland Barthes, Ibid, p 200-204.

(33)- Roland Barthes, Ibid, p 205.

(34)- بول ريكور ، نظرية التأويل ،ترجمة سعيد الغانمي، المرجع السابق، ص 16.

(35)- السريالية Surréalisme :(ما فوق الواقعية) كلمة ابتكرها غيوم أبولينير، أعاد استعمالها أندريه بولون، ومعه مدرسة كاملة في الأدب والفن الحديثين، تتميز بالنفور من التراكيب العقلية و التسلسلات المنطقية، وبالاستثمار النسقي لما هو غير عقلاني، وأيضا للحلم والحالات المرضية، وذلك بالرجوع غالبا إلى التحليل النفسي. أنظر: أندري لالاند، موسوعة لالاند الفلسفية، ترجمة خليل أحمد خليل، دار الكتاب البناني، بيروت، ط2، 2002م، ص1394.

(36)- Roland Barthes, Ibid, p 217-218.

(37)- Roland Barthes, Ibid, p 219-220.

(38)- Roland Barthes, Ibid, p 213-214.

(39)- Roland Barthes, Ibid, p 214-216.

(40)- فراس السواح، المرجع السابق، ص 20.